

دلائل الإعجاز

يَضِبَطَ صُورَ الألفاظِ وهيئتها ويؤدِّبُها كما يؤدي أصنافَ أصواتِ الطيور لرأيتَهُ
- ولا يخطرُ ببالي - أنَّ من شأنه أن يؤخِّرَ لفظاً ويقدمَ آخرَ . بل كان حاله
حالَ مَنْ يَرْمِي الحصى ويعدُّ الجوزَ . اللهمَّ - إلا أنَّ تسومَهُ أنتَ أن يأتيَ بها
على حُرُوفِ المعجم ليحفظَ نسقَ الكتاب .

ودليلُ آخرُ وهو أنَّهُ لو كان القصدُ بالنِّظم إلى اللفظِ نفسه دونَ أن يكونَ الغرضُ
ترتيبَ المعاني في النِّفس ثم النِّطقَ بالألفاظ على حدِّها لكانَ يَنْبَغِي ألاَّ يختلفَ
حالُ اثنين في العلمِ بحسُنِ النِّظم أو غيرِ الحُسْنِ فيه لأَنَّهما يُحَسِّبانِ بِتوالي
الألفاظِ في النِّطقِ إحساساً واحداً ولا يعرفُ أحدهما في ذلك شيئاً يجهلُه الآخرُ .
وأوضحُ من هذا كلاًَّ وهو أنَّ النظمَ الذي يتواصفُه البُلغاءُ وتتفاضلُ مراتبُ
البلاغةِ من أجله صنعةٌ يُستعانُ عليها بالفكرةِ لا محالةً . وإِذا كانتَ مما يُستعانُ
عليه بالفكرةِ ويُسْتخرجُ بالرِّوايةِ فينبغي أن يُنظرَ في الفِكْرِ بماذا تلبِّسُ
أبالمعاني أم بالألفاظِ فأَيُّ شيءٍ وجدته الذي تلبِّسُ به فكرُك من بينِ المعاني
والألفاظِ فهو الذي تحدثُ فيه صنعتُك وتقعُ فيه صياغَتُك ونظمُك وتصويرُك فَمُحالٌ أن
تتفكَّرَ في شيءٍ وأنتَ لا تصنعُ فيه شيئاً . وإنما تصنعُ في غيرِه لو جازَ ذلك لجازَ
أن يفكرَ البنِّساءُ في الغَزَلِ ليجعلَ فكرَهُ فيه وُصلةً إلى أن يُصنِّعَ من الآجُرِّ
وهو من الإِحالةِ المفُرطة